مقدمة

نص "الديداخي" أو "تعليم الإثني عشر رسولًا"، تم اعتباره كأهم اكتشاف آبائي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد اكتشف المخطوطة، والتي يرجع تاريخها لعام ١٠٥٦م[1] مع عدة كتابات أخرى مبكرة وقيمة، المطران الأرثوذكسي برينيوس في القسطنطينية عام ١٨٧٣م، وقد نشرها بعد ذلك بعشر سنوات. وخلاصة الديداخي أنه تعليم مؤسس على أقوال الرب، وقد سلَّمه الرسل الإثنا عشر للوثنيين الذين رغبوا في أن يصبحوا مسيحيين. الجزء الأول (من فصل ١ إلى فصل ٦) عبارة عن موجز للأخلاق المسيحية، وهو مناسب للمتقدمين إلى المعمودية من الوثنيين. هذا الجزء التعليمي الديني يؤسس صيغة طريق الحياة وطريق الموت، وكذلك ممارسة الفضيلة المسيحية، ويعدد الخطايا التي يجب تجنبها. ونقطة بدايته هي الوصية المزدوجة بمحبة الله ومحبة القريب. الجزء الثاني (الفصول من ٧ إلى ١٠) هو ملخص طقسي أو ليتورجي. فهو يشرح طقس المعمودية (الفصل ٧)، والممارسة المسيحية للصوم والصلاة (الفصل ٨)، والصلوات التي تستخدم في احتفالات العشاء الرباني (فصلان ٩، ١٠). أما الجزء الثالث (الفصول من ١١ إلى ١٥) فهو القسم الخاص بالقوانين الكنسيَّة الذي يصف بإسهاب حياة الكنيسة وتنظيمها. وهو يميِّز بين ثلاث وظائف كنسيَّة (الفصل ١١) وهي: "الرسل" و"الأنبياء" و"المعلمون"، كما يحتوي على مبادئ لأجل قبول أو رفض ضيافة الإخوة المسافرين (الفصل ١٢)، وكذلك

---

[1] التاريخ المذكور هنا هو تاريخ نسخ المخطوطة وليس تاريخ الكتابة، لأنها كتبت ما بين عام (٥٠م - ١٢٠م). ويقترح كواستن أن تاريخ كتابتها بين (١٠٠م - ١٥٠م). انظر: جواهنس كواستن، علم الآبائيات، المجلد الأول، الطبعة الأولى، مركز باناريون للتراث الآبائي، ٢٠١٥م.

يحض على دعم الأنبياء (الفصل ١٣)، مع الإشارة إلى مراعاة يوم الأحد بانتظام (الفصل ١٤)، ويعطي قواعد للسلوك القويم تجاه الأساقفة والشمامسة (الفصل ١٥)، أما القسوس فلم يُذكروا بوضوح، ويُختتم نص الديداخي (الفصل ١٦) بالحثّ على أخذ الحياة بجدية، مشيرًا إلى الدينونة الوشيكة ونهاية العالم. أما العقيدة المسيحية فلم يفصح عنها صراحةً، بل تمت الإشارة إليها في بعض الوصايا.

أين تم تأليف نص الديداخي؟ بعض من الأقوال (الفصل ١٣) تبدو موجهة لمدينة صغيرة أو لمجتمع قروي، ولكننا لا نزال متروكين لنخمن ما إذا كانت مدينة سورية (أو فلسطينية) أو مصرية هي الأقرب للصواب. فالأولى يقترحها علينا تلميح عن احتمال نقصان المياه الجارية المطلوبة للتعميد (٧: ٢)، والتحذير من "المرائين" (أي اليهود) في (٨: ١ ، ٢)، وذكر الحبوب المنتشرة على التلال (١٠: ٤). بينما تأتي بعض الاعتبارات في صالح مصر كمكان تأليف الديداخي، مثل شهادة كليمندس السكندري (المتفرقات ١)، وشعبية الديداخي في مصر، واكتشاف المخطوطة اليونانية القبطية... إلخ.

وقد انشغل العديد من العلماء بمناقشة تاريخ تأليف نص الديداخي. فبينما نجد بعض العلماء يرجحون أنه يرجع إلى وقت ما في القرن الأول، نجد البعض الآخر يرجعونه إلى القرن الثالث. والديداخي كما نعرفه، أي الذي يتكون من ستة عشر فصلاً، ليس من الضروري أن يكون عمل مؤلف واحد أو نتاج خطة واحدة فقط، بل ربما هو اندماج لوثيقتين (أو حتى ثلاث)، كل منهما تخدم غرضًا محددًا، وربما يكون لكلٍ منها تاريخ تأليف خاص بها. على كل حال، فالوصايا المذكورة في (الفصل ٧) بخصوص الطريقة السليمة للتعميد تبدو موجهة للوثنيين الذين تم تعميدهم توًا، حيث قيل لهم كيف يعلِّمون ويعمِّدون آخرين. ومن ناحية أخرى، القسم

الخاص بصلوات العشاء الرباني يُسلِّم بحضور أشخاص غير مُعمَّدين في وجبة العشاء الرباني. وتظهر مشاكل أخرى تتعلق بالجانب الأدبي؛ فهناك نقاط تشابه واضحة مع وثائق أُخرى مبكرة، لاسيما رسالة برنابا (ديداخي ١ ـ ٦ مع برنابا ١٨ ـ ٢٠)، ونص تعليم الرسل الإثني عشر اللاتيني. ولكن لا يمكن أن يوجد شك في أن بعض الكتابات المحددة التي تتعلق بليتورجية الكنيسة وقانون الكنيسة مثل الدسقولية، والتسليم الرسولي، والكتاب السابع من المراسيم الرسولية، قد اقتُبسَت من الديداخي.

ولكن هناك حقائق معينة يجب ملاحظتها؛ فقد تم تبشير مدينة أنطاكية، المركز السرياني الهام للوثنية، في عام ٤٢م أو ٤٣م، كما قام الرسول بولس بأول رحلاته التبشيرية ما بين عامي ٤٥م و٤٨م. ولهذا ظهرت الحاجة الملحة لتلقين حقائق الإيمان للموعوظين الوثنيين. وفي عام ٤٩م أو ٥٠م نظر المجمع الرسولي في الأمر ووضع قراراته الشهيرة (أع ١٥) ولذلك فنحن متأكدون أنه في غضون ذلك الوقت كان قد تم استحداث وسيلة فعالة لتعليم الموعوظين. ومما هو جدير بالملاحظة الآن أن عنوان "الديداخي" في حد ذاته يربط الكتابة الأولى ـ على الأقل ـ لهذا النص بطريقة أو بأخرى "بالرسل الإثني عشر" ولن يكون اندفاعًا منا أن نستنتج أنه كان وسيلتهم للتعليم. وبما أن الديداخي يقدم نموذجًا معدلًا لقرار المجمع الرسولي (انظر ٦ : ٢ ، ٣)، فلا بد من أن هناك فترة زمنية وقعت بين عام ٥٠م وبين تاريخ كتابة الديداخي. وإن سمحنا بفترة عقد كامل تفصل بين الحدثين، فسنكون قد وصلنا للعام ٦٠م، ومن المستحيل دحض تصريح بعض العلماء أن الديداخي قد كتب، إن لم يكن كله فعلى الأقل جزء منه، فيما بين عامي ٦٠م و٧٠م، ويُفضِّل آخرون الفترة ما بين ٧٠م و٨٠م، في حين يتمسك آخرون بالعقد الممتد ما بين ٨٠م

و٩٠م. وبحسب تصريح الكثير من العلماء البارزين فإن الديداخي قد كُتب "قبل نهاية القرن الأول".

والنظرة الفاحصة لمحتويات الديداخي تعضد هذا الاستنتاج؛ وذلك من خلال الحكم بالدليل اللغوي والموضوع الداخلي، فعلى سبيل المثال، نجد تنظيم الكنيسة لا يزال بدائيًا ويُذكّرنا بما جاء في: (أف ٤ : ١١) و (١ كو ١٢ : ٢٨)، ويبرز في الكنيسة أشخاص موهوبون (١١ : ٣ إلخ، وخصوصًا ١٣ : ٣)، ورتبة القسوسية ليست مذكورة بعد كرتبة رسمية متميزة عن رتب الأساقفة والشمامسة، رغم أن رسالة القديس كليمندس إلى الكورنثيين كتبت تقريبًا عام ٩٦م، وتذكر "الأساقفة والقسوس والشمامسة"، ونجد أيضًا أن المعمودية لا تزال تتم في النهار. ومن ناحية أخرى، فإن هذه الدلائل يراها آخرون أنها تستبعد العصر الرسولي كتوقيت الكتابة. ومما يؤكد هذا الأمر، ما ورد في (٧: ٣) عن المعمودية وأنها كانت تجرى بسكب الماء على الرأس، وبالتغطيس في الماء.

وقد كان الاهتمام الرئيس - واللغز الأعظم - للديداخي هو فصول الإفخارستيا (٩ ، ١٠)، فالكاتب لا يصف الاحتفال بالإفخارستيا، وإنما يصف الصلوات التجهيزية التي يجب استخدامها في هذا الاحتفال، وهو يعطينا بعض الدلالات التي تسمح لنا بأن نرى كيف كان يتم الإعداد للصلوات. ويجب الآن ملاحظة أن كثيرين من العلماء يسلمون بلزوم إجراء عدد من التغييرات في النص لجعله ممكن الفهم، ولكن تلك التغييرات هي تلاعب عنيف بالنص المُسلّم لنا. وبخصوص الإفخارستيا نجد أول إشارة لهذا الموضوع في الفصلين ٩ و١٠. وإننا لنُفاجأ من ذكر الكأس قبل الخبز، كما أن الكأس أيضا ذُكر قبل الخبز في لو ٢٢ : ١٧ - ١٩. والصلوات التي تلي ذلك لا تستخدم تعبير جسد ودم يسوع المسيح، وربما أنه قد تم اختيار تعبيري "كرمة

داود" (٩ : ٢) و"الخبز المكسور" (٩ : ٣) عن عمد كبديلين مناسبين.

ونهاية الفقرة (٩: ٤)، تجعلنا نفترض بحق أنه بما أن الشركة التي كانت قبل الوجبات قد انتهت، فالاجتماع المقصود هنا يُفهم على أنه بداية الوجبة. وهذا لا يصرح به كاتب الديداخي بكثير من الكلمات، ولكن في (١٠: ١) نجد أن كل المشاركين قد شبعوا من الطعام. فمن المؤكد إذن، أنه كان يتم تناول وجبة عند نهاية الفقرة (٩: ٤). وفي الفقرة (٩: ٥) أثناء الوجبة، أو عند نهايتها يُحذر غير المعمدين من المشاركة في الإفخارستيا. ومن المؤكد أن الوجبة التي بخصوصها تصف الفقرات (٩: ٢ ـ ٤) الصلاة التي كان ينبغي أن تقال، كانت وجبة اعتيادية للجماعة. وسواء سميت "أغابي" أو أي اسم آخر فهذا لا علاقة له بالموضوع الذي أمامنا. ومتى انتهت تلك الوجبة، عند نهاية الفقرة (٩: ٥)، يغادر الموعوظون[٢] الغرفة (أو ربما ينسحب المسيحيون المؤمنون إلى "غرفة علوية": راجع مر ١٤: ١٥) أو على الأقل يأخذون جانبًا منفصلًا، ويُتلى القداس في حضورهم، ولكن لا يأخذون الشركة المقدسة. وفي ضوء الممارسة المتأخرة للكنيسة فإن الافتراض الأسبق هو الأكثر احتمالًا، حيث إن الموعوظين كان يُسمح لهم بحضور قداس الموعوظين (وهو يتكون من: صلوات، وترانيم، وقراءات، وعظات)، ولكن كانوا يُمنعون من قداس المؤمنين.

وبداية الفصل ١٠ تخبرنا بأن كل أعضاء الجماعة قد شبعوا من الطعام. وهذا يعني أن الصلوات في (٩: ٢ ـ ٤) كانت إعدادًا للوجبة المشتركة، وبالنسبة للمسيحيين المؤمنين فهي إعداد أيضًا للشركة المقدسة. ويتضح لنا الآن لماذا لم تشر تلك الصلوات بشكل قاطع إلى جسد ودم المسيح. وسبب هذا الصمت، أو بالأحرى سبب اللغة

[٢] الموعوظون هم من كان يتم تلقينهم مبادئ التعاليم المسيحية، قبل أن ينالوا المعمودية ويصيروا مؤمنين أو مسيحيين، وهنا يميز بينهم وبين المؤمنين الذين نالوا المعمودية ويحق لهم الاشتراك في الإفخارستيا. (المُراجع)

الغامضة للصلوات التي يقدمها لنا كاتب الديداخي نفسه: "لا تعطوا القدس للكلاب" (٩: ٥). وهذه الكلمات التي لربنا كانت في سياقها الأصلي (مت ٧: ٦) هي أمر عام بعدم إفشاء (وعلى الأقل عدم إعطاء) ما هو مقدس عند المسيحيين إلى غير المؤمنين. وتقرير بليني[٣] للإمبراطور تراجانوس يؤكد هذا، فقد تم إرسال جواسيس لتحري السلوك الغريب للمسيحيين في خدماتهم، ولكن كل الجواسيس استطاعوا أن يتأكدوا من أنهم أكلوا "فقط الطعام العادي غير الضار". فقد رأوا أنه كان يُعطى فقط الخبز والخمر للمسيحيين، لكنهم لم يقدروا أن يستوعبوا أنهما كانا جسد المسيح و دمه.

وفي الفقرات (١٠: ٢ ـ ٥) كانت لصلاة الشكر التي تُقدم بعد الوجبة طبيعة خاصة ومهيبة جدًّا. ومرة أخرى لا توجد كلمات واضحة، والسبب في هذا أيضًا هو وجود غير المُعمدين، والذين إمّا أنهم لم يغادروا الغرفة، رغم امتناعهم عن الشركة المقدسة، أو عادوا للانضمام للجماعة في صلاة الشكر، فبالنسبة لهم هذه الصلوات هي شكر لأجل وجبتهم المشتركة، في حين هي بالنسبة للمسيحيين المؤمنين طريقة لشكر الله على كل من الطعام العادي والإفخارستيا. وقد تمت الإشارة إلى الإفخارستيا بتعبيرات مثل: "الطعام والشراب الروحي" و"الحياة الأبدية" وأيضًا "كرمة داود المقدسة" في (٩ : ٢).

والنص الذي ورد في (١٠: ٦) يأتي في البداية كمفاجأة حقيقية للقارئ المعاصر. ولكن إن أخذنا في اعتبارنا أن المسيحيين الأوائل كانوا حقيقة يشتاقون إلى "نهاية العالم" و"الباروسيا" (παρουσία) أو مجيء المسيح الممجد، فلن تواجهنا مشكلة في شرح أن "النعمة" ليست سوى اسم آخر للمسيح. ويتضح على الفور أن الاحتفال بالإفخارستيا كان يعتبر لحظة مناسبة لهذا الشوق إن عرفنا أنه

[٣] مؤرخ روماني عاش في القرن الأول المسيحي وكتب عن المسيحيين.

خلال الشركة المقدسة يكون المسيح الممجد حاضرًا بالحقيقة في المؤمنين. وهذا يوضح الشوق إلى فرح الاختطاف الذي عبَّر عنه المسيحيون بنصين إسخاتولوجيين[٤] شهيرين هما: "أوصنا لإله داود" و"ماران آثا." ويتبع ذلك على الفور الجملة الاعتراضية: "إن كان أحد مقدس... إلخ" والتي تشترك في السمة الإسخاتولوجية. فعندما يعود المسيح ليأخذ مختاريه للبيت معه إلى الآب (يو ١٤ : ٣) فعندها "كل من هو مقدس" أي "مسيحي" يمكنه أن يتقدم بثقة ليقابله، ولكن أي شخص غير مسيحي "فليأتِ" ويصير مسيحيًا. ولهذا فإن فعل الأمر الذي نوقش كثيرًا "فليأتِ" (ἐρχέσθω) هو تشجيع للمسيحيين في الجماعة على المثابرة في الإيمان، وأما لغير المُعمدين فهو حث لهم على الخضوع للمعمودية.

وبالنسبة لممارسة شكر واحد عام للوجبة العادية والإفخارستيا، تتدفق المصادر واضحة بشكل كاف؛ ففي الواقع، كلا النصين: (مت ٢٦ : ٣٠) و (مر ١٤ : ٢٦) يشهدان أنه قبلما غادر يسوع والرسل العلية "سبحوا [ترنيمة شكر.]" وهي بلا شك "الهلّيل" الذي كان يُقصد به تقديم الشكر لله من أجل عشاء الفصح، غير السرائري، وكل البركات التي يعنيها، ولكن أ لم يكن على الأقل في ذهن يسوع أنه شكر على الإفخارستيا التي ختمت وجبة الفصح؟ فالرسل وقتها ربما لم يعوا هذا الترتيب، ولكن بعدها، عندما اجتمع قادة الكنيسة الصغيرة في أورشليم عدة سنوات بعد الصعود، وفكروا في طرق ومعاني تنفيذ توصية الرب: "افعلوا هذا لذكري" أ لم يفكروا تلقائيًا في عشاء الفصح بكونه النموذج الأكثر مناسبة، إن لم يكن الوحيد ليتبعوه؟ وإذا كان هكذا، فقد رتبوا لوجبة فرح وضموا لها

[٤] كلمة إسخاتولوجي هي من الكلمة اليونانية: (ἔσχατος) التي تعني "الأخير" ويعني المصطلح: "علم الأخرويات"، وفي هذا السياق يقصد به توقع نهاية العالم وانتظار مجيء المسيح. (المُراجع)

احتفال الإفخارستيا كتركيب ملائم، وهذا ما فعله الرب نفسه. وهذا أيضًا هو الوضع الذي كان في ذهن كاتب الديداخي عندما كتب الصلوات التي يجب أن تُقال بهذا الشكل لإقامة الإفخارستيا.

وكون الديداخي إذن، بكل أوجه الاحتمالات، هو أقدم أدب موجود لا ينتمي للأسفار القانونية، فهذا يحضرنا إلى نقطة انتهاء (أسفار) العهد الجديد، إذا استثنينا من ذلك كتابات ق. يوحنا. ففي نص الديداخي، كما في العهد الجديد، يمكن إدراك عبق العهد القديم بقوة، وفصوله حول تنظيم الكنيسة ما زالت تذكرنا بالأحوال البدائية التي تقابلنا معها في كتابات بولس الرسول. وخلاله يبدو أننا نسمع "الرسلَ" يكلِّموننا، كما يشير العنوان إلى ذلك. وهناك نقطة تهم القارئ الحديث وهي حقيقة أن الفصول الافتتاحية هي "أكثر صورة مبكرة عن التعليم المسيحي في الكنيسة" خارج أسفار العهد الجديد. وقد اتبعت الكنيسة لتحويل الوثنيين إلى المسيحية طريقتين تتضحان في كتابات الآباء الرسوليين. فالرسالة إلى ديوجنيتوس تبين كيف تواصلت مع الوثنيين المثقفين. أما عند توجيه الحديث لعامة الشعب، فقد أخبرت الكنيسة بشكل رسمي عمَّا ينبغي فعله، وما ينبغي تجنبه، وهو هنا ما تم التركيز عليه، حيث الاهتمام المنصب في نص الديداخي على السلوكيات الخارجية الظاهرة هو أمر طبيعي. ولكن السلوك الخارجي ليس هو كل المسيحية، فمحبة الله والقريب المفروضة من البداية تشكل في الواقع نقطة البداية لكل ما يلي، والكمال مُقدّم كهدف الحياة المسيحية، مع التشجيع على الصدقة وأعمال المحبة، وهي ليست أعمال ظاهرية فقط، بل هي تنبع من العمق الداخلي. كما أن الغضب، والشهوة، والعجرفة، هي كلها أمور ممنوعة. أما الإيمان بالله فهو متضمن في طقس المعمودية، ومخافة الله والرجاء فيه هي

أمور ضرورية لذهن الشخص المسيحي. وصلوات الإفخارستيا، بالرغم من التعبير عنها بلغة غامضة، إلا أنها روحانية بدرجة عالية. وأحداث الحياة العادية ترتقي من خلال الثقة في عناية الله. فالمعلم المسيحي المبكر الذي كان يلقن الإيمان للموعوظين لم يكن إذن مكتفيًا بمجرد عمل قائمة بالخطايا والفضائل، بل هدفه من البداية كان تعزيز روحانية لم تكن معروفة من قبل لدى المؤمنين الجدد. وما كان هذا سوى الخطوة أولى لدخول أعمق في الأسرار المسيحية، وهو ما ظهر بوضوح في رسائل إغناطيوس وفي الرسالة إلى ديوجنيتوس.

وتعد مخطوطة (Codex Hierosolymitanus) التي اكتشفها برينيوس (Bryennios)، المخطوطة الوحيدة المعروفة للديداخي في صورته الحاضرة. ولكننا نجد جزءًا كبيرًا من الديداخي مدرج في الكتابات الآبائية وكتب الكنيسة المبكرة، ولا سيما في رسالة برنابا. ولقد أعطتنا برديات أوكسيرينخوس (The Oxyrhynchus Papyri) قصاصتين قيِّمتين (١: ٣ ـ ٤ و ٢: ٧ ـ ٣: ٢)، كما حُفظت الفصول الستة الأولى في ترجمة لاتينية من القرن الثالث، وحُفظت بعض الفقرات في الوثائق القبطية، والعربية، والإثيوبية، والجيورجية[٥].

[٥] للمزيد من الدراسة لنص الديداخي، انظر: جوهانس كواستن، علم الآبائيات "باترولوجي" المجلد الأول، مركز باناريون للتراث الآبائي، يناير ٢٠١٥، ص ٢٥ ـ ٣٦. ونلاحظ أن كواستن في كتابه هذا لا يصنف كتاب الديداخي ضمن كتابات الآباء الرسوليين، ولكن يضعه تحت عنوان: "الصيغ الليتورجية والتشريعات القانونية الأولى."